سَـتـعْـلَمُ مَـنْ أوْفـى ومَـنْ خـامَ عـهْـدَهُ
ومَـن كـانَ مِـن آتٍ إِلَـيْـنَـا وذاهِـبِ
وتَـظْهر أحْـوالٌ يَـروقُ سَمـاعُهـا   فيَـرْغَبُ في أمْثـالهـا كـلُّ راغِـبِ

وإن العرب تأخروا قليلاً، فخاطبهم يستعجلهم، ويذكر لهم نيَّه العازمَة على الجهاد ويسترحلهم، بهذه القصيدة أيضاً وهي من قول ابن عباش[1] (طويل)

اقيـمُـوا إلـى الـعَـلْيـاء عُـوجَ[2] الـرَّواحِـلِ
وقُـودُوا إلـى الـهَـيْـجَـاءِ جُـرْدَ الـصَّـواهِـلِ
وقـومـوا لنصْـر الـدِّين قـومـةَ ثـائِـرٍ   وشُـدُّوا على الأعْداءِ شـدَّةَ صـائِلِ
[277] وأسْـرُوا بَـني قَيْسٍ الى نَـيْـلِ غـايَـةٍ
مِـنَ الـمَـجْـدِ تُـجـنـى عِـنْـدَ بَـرْدِ الأصـائِـلِ
فمـا العزُّ إلا ظهرُ اجْـرَدَ سـابِـحٍ   تموتُ[3] الصبا في شدِّه المُتَواصِلِ
وابـيـضُ مـأثـورٌ كـأنَّ فِـرنْـدَهُ   على الماءِ مخبوكٌ[4] ولَيْسَ بسائِلِ
بَني العَمِّ من عليا هِلال بن عـامـرٍ   وما جمعتْ من بِاسلٍ وابنِ باسِلِ

(1) نسب المراكشي في المعجب هذه القصيدة للخليفة عبد المؤمن نفسه، وتبعه في هذه النسبة بعض الأدباء والمؤرخين ممن كتبوا عن الحياة الأدبية على عهد الموحدين، وهي كما ترى ـ حسب قول ابن صاحب الصلاة المؤرخ المعاصر ـ لابن عياش، ولسنا بهذا ننفي شاعرية عبد المؤمن فقد تضافرت النقول على ذلك، ولكنا نشك في نسبة المراكشي هذه المقطوعة له

أنظر المن بالإمامة صفحة 5.

المراكشي، المعجب، ص 225 — 226 ـ الحلل الموشية 131 ـ عبد الله كنون، النبوغ المغربي المطبعة المهدية، تطوان ـ جزء ثان ص 266 ـ محمد المنوني ـ الآداب على عهد الموحدين نشر معهد مولاي الحسن ـ تطوان ص 159.

Pronvençal Notes D histoire Almohade Hesp X 1930 p 66

(2) كذا في المخطوط جمع عوجاء، وفي المعجب (هوج) جمع هوجاء.

(3) في المعجب تفوت الصبا، وعلى كل فالمراد أن السابح يفوق ويطغى على ريح الصبا بعدْوه المتواصل

(4) في المعجب منسوج

تَعَالَوا فقَدْ شُدَّتْ إلى الغَزْوِ نيَّةٌ   عـواقبُهـا مَقْصُـورةٌ[1] بـالأوائِـلِ
هيَ الغزْوةُ الغرّاءُ والموعدُ الَّذي   تنجز في أُفْقٍ[2] المَدَى المتطاولِ
بها تُفْتح الـدُّنْيا بِهـا تُبْلغ المُنَى   بها يصفُ التَّحْقيقُ من كلِّ باطلِ
عـزْمـنـا وأمـرُ اللهِ لا بـدَّ واقـعُ   عَلى وقْعَةٍ تُودِي بدين القَبائِلِ!
بجَيْش يضلُّ الطَّيْرُ في حُجُراتِـهِ   وتحجب عنه الشمسَ سُحْبُ القَساطِلِ
وتحْسِر فيه الطَّرفَ من كلِّ جانبٍ   بُحورٌ دلاصٌ عادماتُ السَّواحِلِ
ويُطْلِع ليلُ النَّقْع فيه كـواكبـاً   منَ البِيضِ أو مِنْ مُرهفات المَناصِلِ
ويُضْحي به بَحْرُ الدِّماء مفجَّراً   بـاسْمَـر عسَّـالٍ وابْيض نـاصـلِ
بـأيْدِي رِجالٍ قَدْ وفَوا بعُهودِهِم   وخاضوا لنصر الدين أمواجَ هائلِ
فما وَهَنُوا يَـوْمـاً ولا فـلَّ عزْمَهُمْ   ولا حَيَّرتْهم مُعضِلاتُ النَّوازِلِ
فطيروا إليها يا هلالَ بْنَ عـامِـرٍ   ثِقـالاً خِفـافـاً بَيْن حافٍ وناعِلِ
ولا تخدعُوا عن حَظِّكم من إجابَةٍ   تُبوِّئُكُمْ في المَجْد أسْنى المَنازِلِ
وتُـقْـطعـكـم صـدْرَ الـنَّـدى[3] اذا نَـبَـتْ
بِـمَـن لَـمْ يَـكُـن مـنكـم صدورَ الـمَـحـافِـلِ
اهْنـا بكمُ للخَيْـر واللهُ حَسْبُنـا   وحَـسْـبُـكُـم واللهُ أعْـدَلُ عـادِلِ
فمـا همُّنـا إلَّا صَـلاحُ جَـمِيعكُم   وتسـريحكم في ظِلِّ الخَضْر هاطِلِ
[278] وتَسْـويغُكُم نُعْمَى يَـرِفُّ نَضيـرُهـا[4]
عَـلَـيْـكُـم بـخـيـرٍ عـاجـلٍ غـيـر آجِـلِ
فـلا تَتَـوانَـوْا فـالبِـدارُ غَـنيمَـةٌ   وللمدلِج السَّاري صفاءُ المَناهِلِ!

(1) كذا في الأصل وفي المعجب منصورة، والظاهر أن الصواب مقرونة.

(2) في المعجب (تنحز من بعد المدى)

(3) الندى مجلس القوم، ويعني أن هذه الاستجابة ستمكن الضعاف منكم من احتلال صدور المجالس

(4) في المعجب ترف ظلالها أنظر ص 226

الاجابة من العرب الى الامر العزيز بالوصول

ولما وصلت الى العرب بنظر افريقية والزاب[1] والقيروان هاتان القصيدتان واوضحوا قراتهما، وتبيّنت لهم معانيهما وفصاحتهما، وما فيهما من التحريض على جهاد الكفار، ودفاع المنافقين الفجار، وطهّر الله قلوبهم ونوّر أفئدتهم وعيونهم إلى فهم ما دُعوا إليه من الدخول في مسالك الأبرار الأخيار، أجابوا إلى الطاعة، على حكم الاستطاعة، بأكمل البدار، وكان من اليُسْر في هذا الاستدعاء، والبشر الموافق لهذا النداء، أن شيخ بني رياح وزعيمهم[2] جبارة بن أبي العينين كان قد فرَّ بنفسه قديماً عن هذا الأمر العزيز إلى بلاد مصر والحجاز واليمن وجال في تلك الأسقاع، وطاف في تلك البلاد طمعاً في مُعين ـ بزعمه ـ على الامتناع، وسعد هذا الأمر العزيز يرده عن ردِّته وأمثاله، ويقتل أقياله، ويقبل به منكوصاً على عقبه، راغباً إقباله، ولما لم يجد عن هذا الأمر العزيز بدأً، ولم يرَ في تلك الأسقاع من يرفد رفداً، ولا من عنده عضداً، أبْعد مذهب ردَّته [279] وقرَّب اقتياد راحلته إلى بلدته، ميمّماً هذا المغرب الأقصى الذي ظهر فيه نور العدل، وزكى فيه أهل الهدى والفضل، بهدي الإمام المهدي، ونور خليفته أمير المؤمنين الأعدل، سيدنا الإمام أبي يعقوب أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنهم. وحين وصل بلاد افريقية المذكورة، وجد أكثر بني عمه قد بادروا إلى طاعته هذا الأمر العظيم، والحركة الى الجهاد الكريم، أسرع بنفسه وإخوته قبل إسراعهم، وخَمّع قبيله الأخص قبل اجتماعهم، ولحق بهم أولاً الى السيد الأسنى أبي زكريا يحيى بن

(1) الزاب هو طرف الصحراء الجزائرية وعاصمتها طبنة، وهو ثلاث مناطق: الشرقي والصحراوي والقبلي وفيها المياه والأنهار والعيون. الإدريسي صفحة 93 الاستبصار صفحة 171

YVR Ency TIVp 1246 — 47

(2) يستأثر ابن صاحب الصلاة بذكر محاولات زعيم بني رياح جبارة هذا في المشرق من أجل الحصول على عون الحكام هُناك، ولهذا لا نجد ذكراً له في الكتب التي عنيت ـ بصفة خاصة ـ بهذه الحقبة من تاريخ المشرق.
ابن واصل: مفرج الكروب، أول نشر الدكتور جمال الدين الشيال 1953 ص 197 — 136

الخليفة بمدينة بجاية مستظلياً عليه، مستعصماً لديه، فلقي عنده من الصّفح والعفو ما يوجد عند سيِّد كريم، على الصراط المستقيم. وأقام عنده إلى أن وصل قدّاح[1] وأبوه وإخوته وأشياخ العرب بجمعهم، وتحرك السيد الأسنى أبو زكرياء المذكور إلى الحضرة العلية مراكش، فأقبلوا تحت لوائه، متبركين بصحبته ودعائه، ووصل أيضاً العمال والأمناء بافريقية: أبو محمد عبد الواحد اقوسفور[2] صاحب تونس وأنظارها، وأبو زكرياء يحيى أقصور الهنتاتيان[3] ومعهم[4] ... النعمان بن ....[5] بهؤلاء العرب والأموال والخيل العراب، العتاق الأحساب، المدرَّبة عند الأعراب، ولما وصلوا مدينة تلمسان صحبهم السيد أبو عمران موسى بن الخليفة[6] أيضاً بمن عنده من العساكر والعمال بالأموال مع عاملهم أبي الربيع بن عبد النور[7] وبالخيل المسوَّمة [280] الكثيرة الأعداد العوالي المعوّدة المقدمة القوادم، الرجَيح الأكفال، واجتمع الجميع، وصحبهم السامع المطيع، فلما قاربوا الحضرة العلية أُمِرُوا بخطاب بر أن يأخذوا أنفسهم ومن معهم بالرفق في المشي واللحاق، والتؤدة في الوصول والارتفاق، والمحافظة على الخيل العتاق، فامتثلوا الأمر الواصل، وعملوا الرِّفق المتواصل. وكان عدد الخَيْل الواصلة من افريقية أربعة آلاف فرس، ومائة وخمسين حملاً من المال الصامت، وكان الذي وصل من تلمسان ونظرها ألف فرس، وخمسين حملاً من المال الصامت.

(1) لم نجد صدى لقداح هذا بالرغم من أن السياق يفيد أنه كان ذا منزلة مرموقة
(2) يحذف ابن عذاري اسم اقوسفور. أنظر ص 80 من البيان المغرب
(3) ذكر البيذق قليلاً من أهل هنتاتة ولكنه اعتذر عن ذكر من لم يقف على أسمائهم، ويظهر أن عبد الواحد اقوسفور ويحيى أقصور كانا في جملة من ناصر حركة الموحدين من أول الأمر.
(4) هنا بياض صغير. لكن ابن عذاري لم يأبه ـ أنظر صفحة 80 من مخطوط ابن عذاري.
(5) هنا بياض لكنه أوسع من الأول، ويظهر أن المؤلف كان يريد أن يثبت من والد النعمان لكنه لم يتمكن من ذلك أما ابن عذاري فلم يكلف نفسه التعلق بذكر الوالد.
(6) لم يذكره ابن صاحب الصلاة ضمن أولاد الخليفة عندما كان يعددهم. راجع التعليق رقم 1 ص 156
(7) اختصر ابن عذاري هنا فعدل عن ذكر أبي الربيع سليمان بن عبد النور. ابن عذاري ص 80.

لحاق الخبر السار بوفود السيدين والعرب

وكان أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه قد استقلَّ قبل وُصُول الخبر، فتمكَّن سروره واستقلالُه، وتضمن بفضل الله ولطفه حبوره واستهلاله، وعزم أن يكون خروجه أولاً الى المسجد الجامع، وأن يؤدي فيه الفريضة يومَ الجمعة على أداء الراكع السَّاجد الخاشع.

الخروج الى المسجد الجامع

[281] وخرج إلى المسجد بعد اتصال مرضه المشهور يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الأول عام ستة وستين وخمس مائة لحضور الصلاة الفريضة فيه وخطب الفقيه ابو محمد المالقي الخطبة المعلومة، وأسرع فيها وفي الصلاة بالتخفيف على أمير المؤمنين، ففهم الناس من ذلك خروجه الى الصلاة، فاستبشروا وشكروا الله تعالى على شفايته[1] وتيقَّنوا اليُمْن وانتظروا، ودعوا إلى الله تعالى في دوام أيامه، ونصر أعلامه، وظهرت البشرى في تلك الساعة عند افتتاحه الصلاة وسلامه، وبعد فراغ الفريضة صاح الناس بالجامع بظلاماتهم[2] وأبدوا الشكوى بطول مدتهم واقامتهم، فانصرف بعد الدعاء وقد أمر بكتب مسائلهم وفُهِم من عدله قضاءُ وسائلهم.

فلما كان يوم السبت الثاني من خروجه، وهو السابع عشر من الشهر المذكور قدم النظر في إقامة الحدود على أهل التعدي، وأمر القاضي أبا يوسف حجاج بن يوسف[3] بتطلع أحوال المسجونين، وإنصاف المظلومين، ولما كان يوم الاثنين التاسع عشر من الشهر المذكور أمر بفتح الباب المغلق المعروف بباب الأسطوان[4] الذي كان من عادته الجلوس في داخله، واجتمع

(1) مرة أخرى يكتب الناسخ شفايته بدل شفائه. أنظر التعليق رقم 5 صفحة 324

(2) عادة معروفة وما تزال إلى الآن

(3) كان في أبرز قضاة الخليفة، ابن أبي زرع، جزء ثان ص 175

(4) سيذكر ابن صاحب الصلاة مذكر هذا الباب. المنوني ص 250

الموحدون أعزهم الله لمشاهدة فتحه، ففتح وبُسط موضع الجلوس فيه وقد كان أعد كسوة للسَّقايف المسماة بمتيقمي[1]. [282]من الحصور، فبسطت فيها أحمال الحصى والرمل، وفرشت في وسط صحن الدار التي يمشي فيها الناس، وطبع الموضع على أتقن ما كان، وعلى أرتب هيئة تقدمت. وجلس رضي الله عنه ودخل عليه أشياخ الموحدين وأشياخ طلبة الحضر والوزير أبو العلا ادريس بن أبي اسحق وأخوه أبو محمد عبد الله قائمان بترتيب الدخول بالناس، وسلَّموا عليه ودعوا له وهنَّوه على عافيته وشفايته ثم إن الوزير استدعى أشياخ الناس من الأجناد وأهل الاعتقاد والخاصة من أهل الوفود والقُصَّاد، وأدخلهم للسلام، دون كلام. وقام الشيخ الزاهد المرحوم أبو محمد عبد الواحد بن عمر وخطب خطبةً فصيحةً باللسان الغربي للموحدين يشكر الله تعالى على العافية والشفاية، وخطب القاضي أبو يوسف خطبة بليغة في معنى الشكر لله تعالى والدعاء بالنصر والتأييد لأمير المؤمنين، وتلاه الفقيه أبو محمد المالقي بمثل ذلك على أوضح البيان والتبين، من وصف خيرات الله تعالى ونعمه بكمال الدين، وتخفَّفت الحال في الجلوس، وكان هذا اليوم من أسْعَد الأيام في التأنيس.

الصدقة والحنان، والانعام والاحسان

[283] وعندما كان الخير والبشر بما ذكرنه تصدَّق أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه على الضعفاء، والوافدين الغرباء، وجاد عليهم بجوده كالسحابة الوطفاء، وحاز بصدقته الأجر من الله وعند الناس جميل الثناء، فمن رجل ترى بيده ثلاثين ديناراً صدقة! وآخر كذلك، إلى جميع من كتب اسمه من الصنف المسكين؛ الملحوظ بعين الدين، لم يعتقد ذلك في زمانه، بل صانه فضل الله تعالى بحسن صيانه، وسيق إليه الإنعام قبل رهانه، فهو مُبتهلٌ بالدعاء إلى الله تعالى في دوام الأمر العزيز بالنصر والعافية الشاملة على

(1) راجع التعليق رقم 1 ص 200. 246 — Huici

أوفى المزيد بالتمهيد، فعم الفضل والانعام، ورحل عن الضعفاء الفقر والإعْدام، وتخيّلوا الصدقة كأنها أحلام. وكان بحضرة مراكش حرسها الله في حملة الوافدين القاصدين الشاعر المسن أبو الحكم بن رضى البلنسي[1] ممن صحب أشياخ السيرات، ثم أخرجته الفتن والمحن من بلده وتردد في البلاد، فوصل الحضرة العلية مسترفداً فضلها وعدلها، وأقام فيها مدة سنتين على حالة صبفة، ونية لوطنه وأهله شيقة، ويتعرض للوزير أبي العلى بن جامع، وللفقيه أبي محمد المالقي في كلّ يوم يصف لهما قصده، ويرغب من الله تعالى توسّطهما رفده، فيعداله ويسليانه، فلما سنّى الله الخير والبشر باستقلال الخليفة وحلوسه، وابتسام [284] وجه الزمان بعد عبوسه، رفعا مسئلته، ووصفا حالته وهيئته، وذكرا أنه من أهل الشعر وأنه صنع قصيدة يرغب وصولها إلى الموضع العالي، ليتشرف بقبولها على ممر الليالي، فأذن له بذلك فأدخلاه للسلام والانشاد، وسعيا له في الاسترفاد، فدخل وقبّل اليد المباركة، وأنشد قصيدةً ذكر فيها ما تقدم من الفتوح، ولوح بحاجته وشوقه إلى بلده أكثر التلويح، وهي طويلة ليست في الغرض مقولة[2]: (بسيط).

مُسامِري وخَيرُ القوم مَسؤولُ ... حدِّثْ فقولُك مَسْموعٌ ومقْبولُ
حدِّثْ فانكَ قدْ اسْمعتنا حَسَنا ... وعطّرَ الافقَ ذاك القالُ والقِيلُ
ألستَ عن سِيَرِ المَهْديّ تُخْبِرُنا ... ومَن عن اللهِ نَبّى عَنْهُ جِبْريلُ!
وعَنْ حَوارِيّهِ الأسْنى وصفوته ... وسيفُه حِين سيفُ الدِّين مَفْلُول
وعن بَنيه مصابيحِ الهُدى ظهَرتْ ... في كُلِّ داجيةٍ مِنْهُم قَناديلُ
وسُقْ حديثَ أبي يَعْقوبَ مِنْ طُرقٍ ... ففي سياقته المأمُول والسُّولُ
اعادَ وَالقَوْمُ قَدْ مَلّوا السُّرى فهُمُ ... مِنَ الدُّرُوبِ على أكْوارِهم مِيلُ

(1) هو المنذر بن رضى من أهل سرقسطة وسكن بلنسية يكنى أبا الحكم، وكان أديباً شاعراً. ابن الأبار، التكملة الأول رقم 1107 ص 389
(2) نلاحظ ابن صاحب الصلاة هنا ينتقد قصيدة أبي الحكم بأنها خارجة عن الموضوع وطويلة، وأنت ستشعر بشيء أكثر من هذا وأنت تقرأ القصيدة ستشعر أن نسخها مهلهل ولعل للتحريف أيضاً والتصحيف دخلاً في هذا.

فحلتْهُم من عِقالِ أنْشِطوا[1] طَرَباً ... والنّفسُ تَبْعثُها هَدْيِ التّعاليلُ
وخلتُ أنّ الحَيا لما أعادَهُما ... فالماءُ مطّردٌ والزّهْرُ مطْلُولُ
مَلكٌ تودُّ مُلوكُ الأرْضِ لو عَنِيَتْ ... وحظُّها مِنْهُ في يُمْناهُ تَقْبيلُ
قادَ الجُيُوشَ بغصِّ المَشْرِقانِ بها ... والمَغرِبانِ كما غصّتْ خلاليلُ[2]
[285] مِنْ كُلِّ مُغتَبِلٍ سَمْراءَ لَهْذَمُها
أووجهُهُ في ظلامِ الخَطْبِ قِنْديلُ[3]!
او مُرْتَدٍ لِحُسامٍ مثله ذَرِبٍ ... وغايَةُ السّيْفِ مسْنُونٌ ومصْقولُ
او مُختَبٍ فوق مِثْل النِّهْي سابغةٍ
وعضدُه تحتَ ثِنْيِ الدّرعِ مَحْلُول[4]
أو راكبٍ فوقَ متْنِ الماءِ مُرْتَسِقٍ
كأنّهُ قَيْصَرٌ والقَلْعُ إكْلِيلُ[5]
فالبرُّ كالبَحْرِ إذْ تُسْتَنُّ ادرُعُها
والبَحْرُ كالبَرِّ إذ يَصْطَفُّ اسْطول[6]
ولَمْ يُفِدْها[7] لمَن ناوَى مظاهرة ... سِيّانِ بِالنّصْرِ تكْثيرٌ وتقْليلُ
لكنّها هِمّةٌ أوْفَتْ عَلى زُحَلٍ ... ومقتضى المُلْك تَرْجيبٌ وتهويلُ
وقامَ بالأمْرِ مِنْهُ حاذِقٌ طَبِنٌ ... مستجمعٌ حاسرُ الكمّيْنِ مَخذُول

(1) أنشط العقال حله وفك أنشوطته
(2) يقصد به في الظاهر جمع خل بفتح الخاء، أي أنه غص المشرقين والمغربين كما يغص المرء بشرب الخل، ولا تخفى ما فيه من حموضة!
(3) يعني أن الملك قاد الجيوش المتألفة من الأبطال الذين يحملون القنى السمراء تخالهم وتخالها في ظلام الخطب قناديل مسرجة!!
(4) النّهي الغدير، أي والمتألفة من الذين يحتبون فوق دروع سابغة تحاكي في صفائها صفحة النهر بينما سواعدهم تعمل عملها من تحت ثنايا الدروع
(5) ومن الذين يركبون القطائع البحرية متكئين على مرافقهم كأنما هم قياصرة توّجتهم قلاع المراكب
(6) استن الفرس عدا إقبالاً وإدباراً أي إنه لا فرق لدى الجيش بين بر وبحر، فإن البر يمسي بحراً إذا تحركت الجياد، والبحر يغدو براً إذا أحدث الأساطيل ترتيبها
(7) يعني - فيما يظهر - أن الجيوش لا تؤثر فيها مظاهرة المناوئين، وسيان لديها أكانت جحافلهم قليلة أو كثيرة

سُنَّتُ الحسان ربيطُ الجأشِ ذُو رِعَةٍ
إذا تَعارضَ تأويلٌ وتأويلُ
علماً بأنَّ الرَّعايا في كفالَتِهِ   وأنَّه عنهُمُ لا بُدَّ مسؤولُ
مِنْ قيسِ عيلانَ حيثُ المُلْكُ مُتَّسِقٌ
وحيثُ كلُّ فَعَالِ الخَيْرِ مفعولُ
وحيثُ للأمرِ فُسْطاطُ دَعائِمُه   قَنَا لِدانٌ وأسيافٌ مَقاصيلُ
قومٌ إذا ما رَضُوا فالرَّوضُ حَوزَتُهُمْ
وإنْ هُمُ غَضِبُوا فالحَوْزَةُ الغِيلُ
يستأثرُونَ منَ البُؤسَى بِشِدَّتِهَا   فيتخلُونَ وما لِلْقَومِ تَنْحِيلُ
ويُؤثِرُونَ منَ النُّعْمَى بحلْيَتِها   فيَسْتَوِي فاضلٌ فيها ومفضُولُ
لا يطعمُونَ سوى ما أنْضَجَتْ لَهُمُ
نارُ الوَغَى وصَفَايَا الزَّادِ مبذُولُ[1]
القائمينَ بأمرِ اللهِ لا رُهُنٌ   ولا كُسَالَى ولا عُثْرٌ مَهابِيلُ
والصَّابرينَ عَلَى البَأْسَاءِ ما عَلِمُوا   والنَّاصِرينَ ودِينُ اللهِ مخذُولُ
رآهُ أهلاً أميرُ المُؤمنينَ لَهَا   والوائِي مِنَّةٌ على التَّوفيقِ مخْتُولُ
[286] مِنْ بَعْدِ شُورَى وتَبْييتٍ لِرَأْيِهِمْ
وصَيْقَلُ الرَّأيِ تَخْمِيرٌ وتَنْجِيلُ
ومَن تَكُونُ بنُورِ اللهِ نَظْرَتُهُ
رأَى الصَّوابَ وسِتْرُ الغَيْبِ مسْدُولُ
ما اختارَ إلَّا مَنِ اخْتَارَ الإلَهُ لَهَا
وليسَ عَمَّا أرادَ اللهُ تَحْوِيلُ
كَفَيْتَهُ فَوْقَ ما اسْتَكْفَاكَ مُضْطَلِعاً
ومُنْتَهَى السَّهْمِ قَبْلَ النَّزْعِ مَجْهُولُ[2]

(1) الصفايا: ما اختاره الرئيس لنفسه من الغنيمة يعني أن الصفايا مبذولة للناس.
(2) لا يخفى ما في هذا الشطر من بركات!

وحمَّلتكَ اللَّيالي فَوْقَ ما احتملتْ   فنُؤْتَ والعِبْءُ تخْفيفٌ وتثْقيلُ
فانْهَضْ إلى حيثُ لا الأوهامُ تُدْرِكُهُ
فمَركبُ السَّعْدِ بالإدْراكِ مَرْحُولُ[1]
وافاكُم[2] من كلِّ أوبٍ وفدُهُ عنقاً   جيلٌ يُبادِرُهُ مِن حبِّهِ جيلُ
حتَّى تلاقَتْ على أبوابِ سُدَّتِكُم   شَتَّى الوُفُودِ فتعظيمٌ وتبجيلُ
بأنفسٍ خلُصَتْ منها ضَمائِرُها   فكُلُّ صدرٍ من الشَّحْنَاءِ مغسُولُ
مُسْتَمْسِكِينَ على هذي بطاعتِكُم
وحَبْلُ طاعتِكُم باللهِ موصُولُ
مِنْ كلِّ مُوفٍ على قَوْداءَ ضامِرَةٍ   من الرِّحاءِ لَهَا نَصٌّ وتَنْعيلُ[3]
إلى إمامِ الهُدَى أسْرَتْ بأرحُلِنَا   ريحُ الشَّمالِ وإلا فالشَّماليلُ[4]
ولا حُداءَ سِوَى ذِكْراكُم ومُنَى   كالأخذِ بالكفِّ للرَّاجي وتأميلُ
وغيرِ شوقٍ إلى لقياكم سَدِكٍ   ببَعْضِهِ هو قلبُ الصبِّ مَتْبُولُ[5]
حتَّى نَفُوزَ بذكراكُمْ ونجعَلَها   لقاءةً هِيَ تشريفٌ وتفضيلُ
ويا الغَوغاءُ مُغْتَرِّينَ في خَبَلٍ   يا عيَّ شأنُهُ في النَّاسِ تضْليلُ
يَرَى الغنيمةَ في يومٍ يكونُ لَهُ   عَلَيْكُمُ فيهِ أهلَ الأمرِ تَطْفيلُ
والمُلكُ ليسَ بشيءٍ يستقِلُّ بِهِ   إلا ذَوُوهُ الصَّناديدُ البَهاليلُ
[287] ولَوْ رَمَى بيدِ الإذعانِ من كَثَبٍ
قبلتُمُوهُ، فإنَّ التَّوبَ مقبُولُ
أوْلَى لَهُمْ ثُمَّ أوْلَى أن تَحُلَّ بِهِمْ
-لولا تَثَبُّتُكُمْ- صمَّاءُ دُؤْلُولُ[6]

(1) مرحول: مقصود بالأرحل لعله يقصد أن مركب الإمام لا يبلغ ...
(2) كذا في المخطوط ولو حذفت من لاستقام الوزن.
(3) كثيراً ما تذكر بعض القوافي بقصيدة كعب بن زهير:
بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ...
(4) كذا في المخطوط ويظهر لي أن الأصل كان هكذا: «وإلف شماليل» يعني جمال مؤنسة سريعة.
(5) سدك بالأمر أولع به ولم يفارقه ثم لا يخفى ما في قوله: ببعضه هو الخ من ركاكة واضحة.
(6) الصماء: الداهية والدؤلول: بالدال المهملة: البالغة ...

لم تتركوهم وقد أعيَتْ مَناجِذُهُمْ   وإنَّما هو إعذارٌ وتأجيلُ
وكانَ فيما مَضى ردعٌ ومزدجرٌ   لو كانَ لِلقَوْمِ تفكيرٌ وتحصيل
أمَا كفتهُم بسمَّارٍ(1) وتادِلةٍ(2)   وما وَراءهُما تِلْكَ الأفاعِيل
أما أتتهُم أحاديثٌ بأندلُسٍ   وفي الأحاديث تجميل وتفصيلُ!
إن الأولى ناصَبُوا جَهْلاً بقَدْرِهم   وقَدْرِ ذا الأمر قد غالتهم غُول
حالتْ عَلى ابن عُبيدٍ(3) بَعْدَ اقرعِه(4)
بِها، فأردتْهما زَخراجَةٌ جُولُ(5)
ولَمْ تَدَع مردنيشاً عندَ حَوْلتِها   يومَ العُرُوبَةِ إلاَّ وهْو مذهول
سائل بغرناطةٍ عنْهُم ومرسيةٍ   فعنْهُمْ خَبَرٌ في النَّاسِ منقُول
يحشك هامٌ وأشلاءٌ ممزَّقَةٌ   في كلِّ قاعٍ ومفؤودٌ ومَشكُولُ
كأن أنصارَهم أنصارُ أبرهةٍ   ومِنْ رجالاتِكُم طيْرٌ أبابيلُ(6)
لا تشغَلنَّ بهِمْ بَالاً فَإنَّهُمُ   لجائِع المَوْتِ مَشْرُوبٌ ومأكُولُ

(1) لم نعثر على موقع هذا المكان من خلال كتب الأقدمين ويظهر أنه هو (حصن اسمار) الذي حاول أن إليه ابن مردنيش في جبال غمارة، وهو الذي يشير ابن حبوس في شعره
ولقلَّ ما أعطى معادته الذي   أمسى سمر المرغدين سمرا
انظر تعليقنا رقم 3 ص 251 ورقم 1 ص 252
(2) تادلة مدينة قديمة كثيرة الخيرات والأرزاق، وقد بنى فيها الملثمون حصناً عظيماً منيعاً ثم كان الموحدون الذين اهتموا بالمدينة. ويظهر أن الشاعر يشير إلى غزوة تادلة التي تمت سنة 530 من طرف عبد المؤمن، وقد نقل ابن القطان عن ابن صاحب الصلاة أنها أول غزوة غزاها الخليفة بعد الإعلان بالبيعة الاستبصار ص 200 ـ نظم الجمان (مخطوط) معجم البلدان، جزء ثان ص 5.
(3) ابن عبيد الله صهر ابن مردنيش راجع التعليق رقم 4 ص 134
(4) هو حميد البرهانس ـ انظر التعليق رقم 2 ص 127.
(5) الزخراجة الجماعة الكثيرة في الحرب، والجول الكثيف من الخيل...
(6) تلميح لقصة أبرهة ملك الحبشة الذي بنى بيتاً باليمن، وأراد أن يحج الناس إليه كما يحجون إلى الكعبة فذهب أعرابي وأحدث في البيت فغضب أبرهة وحلف أن يهدم الكعبة فاحتفل في جموعه وركب فيله (محمود) وقصد مكة فلما وصل قريباً منها فر أهلها إلى الجبال وأسلموا له الكعبة وأخذ لعبد المطلب مائتي بعير، فكلمه فيها فقال له كيف تكلمني في الابل ولا تكلمني في الكعبة وقد جئت لهدمها وهي شرفك وشرف قومك؟ فقال له أنا رب الابل وأن للبيت رباً يحميه! فبرك الفيل ولم يتوجه إلى مكة ... فبينماهم.

وسوْفَ يأتيكَ عَنْ قُربٍ زعيمُهُم(1)   قَسْراً على كلِّ حَالٍ وهْوَ مذهُول
وليهنِكم أن هَذا العِيدَ عادَكُمْ   وحُسْنُه بكمُ للنَّاسِ مَوْصُولُ
برزتُمُ للمصلَّى ناسكين لَهُ   شعارُكُم فيه تكبيرٌ وتهْليلُ
فكلُّ قولكم أو كل فعلكم   فَفي كتابٍ مع المَقْبُولِ مَقْبُول
مَولايَ كَمْ لِي أُمنِّي النَّفسَ مِنْ سَنَةٍ
بذا المقام وحدّي فيه مَمْطُولُ!
هجرتُ بالشَّوْقِ داري في محبَّتِكُمْ
لا العَيْشُ صنْكٌ ولا المحْبُوبُ مَمْلُولُ
[288] وجيرةٍ لم يَزالوا مُهْطعين إلى   داعِيكُم وحُسامُ الخوْفِ مَسْلول
يستنبطون (عَسَى) أو يَرقُبون (مَتَى)
وفي (عَسَى) و(مَتَى) اسٌ وتَعْليلُ!
والآنَ واللهُ قدْ سَنَّى لِقاءَكُمْ   فقدْ تأتَّى بحَمْدِ اللهِ مأمُولُ
وقد وهيتُ لِذهْري مَا جَنَا وجَنَا(2)
الجُرْحُ مندمِلٌ والذَّنْبُ مَحْمُول
والله يُدْنِي ـ وهذا الأمرُ عن كَثَبٍ ـ
من دارُه الحَزْنُ مِمَّن دارُه صُول(3)

وحين أكمل إنشاءها حسَّن أشياخ المجلس العالي فصولها ومعانيها، وصوبوا أغراضها ومبانيها، فأمر ـ رضي الله عنه ـ بأسهام بمدينة مالقة وراد،

ـ كذلك أرسل الله عليهم طيوراً أبابيل متجمعة تحمل الحجر وترمى به أنصار أبرهة. انظر كتب التفسير عند سورة الفيل
(1) يعني به ادفونش الصغير فهو أبرز من كان ـ في الظروف الحالية ـ خصماً للموحدين
(2) كذا في أصل المخطوط
(3) اقتباس من قول جديع المري الحماسي في باب السير والنعاس من ديوان الحماسة.
في ليل صول تناهى العرض والطول
إلى أن يقول:
ما اقدر الله أن يُدني على شحط   من داره «الحزن» ممَّن داره «صول»

وانصرف مملوءاً الحقائب، بيده ظهير كريم بالتنويه به في البلاد، وبمواساة مستمرة له في ديوان العمل بالغير العتاد [1]

(الانعام بظهير الولاء على ابن صاحب الصلاة)

وأنعم في إثر ذلك بالدخول عليه والسلام، والمثول بين يديه وبالكلام، على أبي العباس المحريطي القرطبي[2] من طلبة الحضر، وعلى أبي الأصبغ عبد العزيز بن عبد العزيز الإشبيلي[3] من الطلبة أيضاً. وعليّ معهم[4] فاستدعانا الوزير ابو العلا إدريس بن أبي اسحاق بن جامع والفقيه ابو محمد عبد الله المالقي، وأدخلانا على أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه وهو متّدع عند استقلاله من ضعفه، متكىء على محاد كثيرة وثيرة، قد فرشت تحته وحواليه في مجلسه العالي، تُعِينه على القعود، وتُدَمِّثُ له موضعه المطلع له بالسعود، فسلمنا عليه بالخلافة، [289] وأنافت بنا فضائله وصدقته أكرم إنافة، وسألنا ـ بعدله ـ عن أحوالنا، وفهمنا منه الحنان واستقبال آمالنا، فدعونا له بالنّصر والظفر، والتّمكين بطول العمر، وقبّلنا المباركة يده، واستنلنا مشربه العذب ومورده، وارتوينا غَمْره الدار وثمده[5]، وخرجنا من مجلسه العالي وتشريفه قد حف بنا من كل جانب، واقتفينا على أعلى المراتب، وبلغنا ما أملناه من الرغائب، وأمر رضي الله عنه لكل واحد منا بما أمله من

(1) يظهر أن الأصل «بالغير المعتاد»
(2) لم نقف على ترجمة لأبي العباس هذا فيما بأيدينا من معاجم الأدباء الموحدين هذا إلى أنه لم يرد ذكره عند ابن صاحب الصلاة سوى في هذه المناسبة
(3) ترجم ابن الابار في تكملته لرجال يحملون اسم عبد العزيز بن عبد العزيز ويحملون لقب أبي الأصبغ لكني لم استطع الجزم بأيهم كان صحبة ابن صاحب الصلاة في دخوله على العاهل الموحدي انظر الترجمة رقم 1770
(4) يلاحظ أن ابن صاحب الصلاة يمشي في مراكش فلعله ورد ضمن وفود المهنئين بالشفاء
(5) الماء المحتفظ به، واستعاره لما ناله في رحاب الخليفة من عطاء

إنعام، وخصنى منهم[1] بظهير[2] كريم بإسهام، ومواساة معها أعانتني على الزمان الذّميم وأغنتني عن اللئام، ووسمْتني بميسم الأولياء للأمر العزيز المنصور الأعلام، جازاه الله تعالى أحسن ما جُوزي به الأيمة المهتدون والخلفاء الراشدون، وخلد الأمر العزيز في عقبه، كما اثبت النسب الشريف في نسبه ومنصبه، وأوضح الدين الحنيفيّ بمذهب، فحُقّ على العبد تَدْوين[3] سعد أيامه، وتعيين الزمان بنصر أعلامه وإمامته، فقد قال رسول الله ﷺ (جبلت القلوب على حب من أحسن اليها، وبغض من أساء إليها)[4]، خلّد الله ملكه وجعل الأرضَ ـ بما وعده ـ ملكه فانه ألبس الدنيا جمالاً وجدد لأهلها بخلافته آمالاً.

الامر بالنظر للتبريز للقاء السيدين [290] والعرب الوافدين من افريقية

ونفد إليهم الأمر العزيز بموضع قربهم واستيذانهم أن يصلوا إلى الحضرة مراكش في ضحوة يوم السبت الثاني من شهر ربيع الآخر سنة ست وستين وخمس مائة المؤرخة. وكان الأمر قد تقدم لجميع الموحدين والعسكر الباقين بالحضرة المذكورة أن يستعدوا وينظروا لأنفسهم في مراكبهم وهيأتهم، فقسمت عليهم الدروع والبيضات والرماح والدرق والأسلحة والكسوات والعلامات والرايات. فلما كان في صبيحة يوم السبت المذكور المؤرخ بُكّر جميع الناس من الحفاظ والطلبة من الموحدين وجميع القبائل من العسكر

(1) يلوح ان ابن صاحب الصلاة كان يمتاز عن طلبة الحضر، وهي التفاتة من الخليفة نم عما كان يتوفر عليه المؤلف من مزايا ومؤهلات
(2) ظلت كلمة «الظهير» مستعملة إلى الآن في العرف المغربي بمعنى المرسوم الملكي
(3) نتأكد من هذا الكلام أن الكتاب خصص أولاً وبالذات لتاريخ أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وان الباعث كان هو هذا الاستقبال السعيد الذي أضفى فيه الخليفة على المؤلف من خيراته ومنح فيه ظهير الولاء.
(4) رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود

المبارك إلى باب السدة[1] العظمى : سدة سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين والوزير أبو العلا ادريس بن جامع مدبر لهذه الحال الشريفة، الطالعة بالنصر المنيفة، لا يصدر شيءٌ إلا عن رأيه، ولا تنتجز عدة من أمر الخليفة إلا عن شفاعته وسعيه، وقد أحضرت الطبول السعيدة التي من أيام الإمام المهدي المربعة[2] الأشكال، السعيدة الأحوال، بالنصر والإقبال، وأضيف إليها من غيرها ما انكمل فيها مائة طبل، والموحدون يترادفون جُمَلاً جُمَلاً وزمراً زمراً حتى كمل الاجتماع، على ما أمر به الأمر المطاع، وأمير المؤمنين [291] ابن أمير المؤمنين رضي الله عنه جالسٌ في موضع جلوسه منتظرٌ اعلام أبي العلا الوزير بكمال ترتيب الحال الموصوفة، حتى وصل إليه أبو العلا المذكور وأعلمه بكمال الأشغال، وحضور جميع الناس، على أكمل الإيناس، فاستوى أمير المؤمنين على صهوة فرسه الأشقر الأغر، وخرج راكباً عليه وهي أول ركبة خرج فيها للقاء أحد أو تشييعه من حين مرضه المؤرخ المذكور، والوزير أبو العلا راجلاً على قدميه بين يديه لصق ركابه، على جنابه، مهما أراد أحد من الرافعين أو المتشكين أو من أهل الحاجات وذوي اللبانات كلاماً أو إشارة خرج إليهم مستفهماً كلامه، موصلاً أعلامه، وفي ساقة أمير المؤمنين على قرب منه تابعاً له السيد أبو عبد الله محمد المخلوع، وإلى جانب سائر الإخوة الصغار، وبني البنين أيدهم الله[3]، وفي ساقته أمام العسكرية ستة عشر علاماً

(1) باب السدة لعله يقصد (باب السادة) الذي كان مخصوصاً بني عبد المؤمن والذي ينتهون اليه على خيلهم لكن الأقرب حسب سياق الكلام أنه يعني باب السقائف حيث مجلس الجماعة
المنوني ص 250

(2) لم تتحدث المصادر التاريخية الموحدية - التي بين أيدينا - عن الطبول المهدية المربعة، ولكنها مع ذلك تحدثت عن تربيع السكة ولا يخفى أن المهدي كان معروفاً عند المؤرخين بصاحب الدينار المربع ...
ابن خلدون العبر، طبعة بيروت المجلد الأول ص 470 المنوني، العلوم على عهد الموحدين ص 239

(3) نلاحظ التعبير الدقيق الذي يمتاز به ابن صاحب الصلاة عند وصف التشريفات الخليفية بعد أن تبوأ وظيفته الجديدة ونال ظهير «الأمانة» راجع ص 147

كباراً من البنود المصنوعة المعدة لهذا الشأن، وبيد كل رجل من أعيان الموحدين علام، وعليه درع سابغة، تلمع لمعان اللجين الخالص في شعاع الشمس، ومن معه يلبس درعاً سابغة وكذلك سائر الأجناد من الحشم والروم والعبيد والجميع من الناس. فلما جاوز سيدنا أمير المؤمنين باب الشريعة[1] وقف ينظر بعينه ويفكر في رأيه السعيد، الموفق السديد، [292] في أي موضع يكون اللقاء والاجتماع، إذ كانت المواضع المتصلة بالمدينة قد ضاقت أفنيتها بسبب البحاير والجنات المغروسات، فاتفق رأيه المبارك أن يتجاوز الشريعة إلى الفحص العريض هناك، فلما وصل الفحص المذكور وهو على هيئته المؤيدة والطبول قاصفة، والجيوش البارزة معه متكائفة، أمر بقبة خباء فضربت له فيه ونزل فيها مع إخوته وبنيه، وأقبلت عساكر العرب من أهل افريقية والسيدين المذكورين، فأشار إليهم أن تحمل العساكر الوافدة والبارزة بعضها على بعض حرباً ولعباً، وفرحاً وطرباً[2]، ورأى الحاضرون والنظارون فيهم عجباً، ودام ذلك اللعب والطرب والطبول تضرب إلى أن مضى أكثرُ النهار، ثم أمر رضي الله عنه للوافدين بالنزول والسلام، فتقدم الأخوان السيدان: أبو زكريا وأبو عمران ثم أشياخ الموحدين ثم أشياخ العرب وجميع الوافدين من الناس، وفيهم علي بن منتصر[3] شيخ بجاية وأنظارها، وفي هذه الغزوة بدأ ظهوره إلى أن أدى به ذلك إلى مقتله حسبما أذكره، فلما أكمل الجميع السلام أمرهم بالانصراف إلى المدينة والدخول فيها، كل واحد إلى منزله قد نظر له، وانصرفت عامة العرب إلى مضرب محلتهم الذي حُد لهم النزول فيه، وكان في انصراف أمير المؤمنين بْنِ أمير المؤمنين [293] رضي الله عنه إلى داره بداخل الحضْرة للناظرين من المرأى الغريب العجيب ما

(1) حول باب الشريعة بمراكش، راجع التعليق رقم 1 صفحة 214

(2) قد سلف له أن ذكر صاحب تونس عبد الواحد الهنتاتي، وعامل تلمسان سليمان بن عبد النور ويضيف هنا إلى المسؤولين عليا بن منتصر شيخ بجاية - راجع صفحة 269

(3) يعني في السفر الثالث وذلك سنة ست وسبعين وخمسمائة، انظر ابن عذاري ص رقم 107

أبهت الناس، وضيق الغبار على الناظرين الأنفاس، وأذهب عن قلوبهم البأس، ورأوا في حالتهم عُرساً قد فاق الأعراس.

مبايعة اشياخ العرب الوافدين وعامتهم

ولما كان في اليوم الثاني من البروز المذكور وهو ثالث شهر ربيع الأخر المؤرخ أمر رضي الله عنه بدخول أشياخ العرب والوفود للمبايعة وأخذ العهد عليهم في ذلك، فدخلوا في يوم الاثنين الرابع من ربيع الأخر المذكور وتمادت بيعتهم المذكورة إلى يوم الأربعاء الموفي عشرين من ربيع الأخر المؤرخ وكملوا بالمبايعة.

خروج أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه الى البحيرة[1] لمعنى اطعامهم، والترحيب بالمامهم.

وخرج أمير المؤمنين رضي الله عنه يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع المؤرخ بعد صلاة الجمعة إلى البحيرة خارج حضرة مراكش فأطعم العرب والناس الوافدين [294] وغيرهم مدة خمسة عشر يوماً، يدخل كل يوم في البحيرة أزيد من ثلاثة آلاف رجل وقد صنع ما تقدمت العادة به نهر من رُبٍّ[2] ممزوج بالماء، كل ما أكلت طائفة وقامت مشت إلى موضع الخليفة رضي الله عنه وسلمت عليه ودعا لها ونهضت إلى ساقية الرب تشرب وتطرب،

(1) عرفت «البحيرة» في مراكش منذ أواخر أيام المرابطين فكانت ملتقى لمعركة بين عبد المؤمن والمرابطين لكن الموحدين عنوا بها كامل العناية واتخذوا منها مكاناً لتجمعهم وهي تعني فسيحاً يحتوي على بركة مائية واسعة تحيط بها الخضرة بالإضافة إلى أروقة يأوي إليها رجال الحكم، والبحيرة اليوم هي - فيما يقال - المكان المعروف باكدال في مراكش والذي كان (قصر المسرة) على عهد السعديين بروفنصال - المنتقى ص 199 - تعليق رقم 2 صفحة 232 - 233 - المعجب ص Deverdun Marrakech p 204 192

(2) راجع التعليق رقم 4 صفحة 113

وأرى الناس في هذا الاطعام، ما أربى على ما تقدم من الانعام والاهتمام، وتمادى ذلك مدة الأيام المذكورة المعدودة. ولما كان في أحد الأيام حدث بين صبيان الموحدين الذين يمسكون دوابهم خارج البحيرة وبين أتباع العرب كلام ونزاع ودفاع بهوشة وقعت بين الفريقين أدت إلى اختطاف الثياب، واستلاب الجلباب، وتحزب الجهال من الاعراب[1] بالأحزاب، حتى وصل ذلك إلى الأمر بباب الدار عند الحجاب، فخرج إليهم طلبتهم من الموحدين أعزهم الله وأشياخهم من العرب وفرّقوا جمعَهم، وأزالوا روعهم، وانحلت الحال عن سلب كثيرٍ أخذوه للناس في الطريق، ومن كل فريق، ومات فيها أربعة أشخاص من عبيدَ للناس، وبعض أحرار من سائر الأجناس، واتصل الخبر بسيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيدهم الله فأقلقه التعدي في باب سدته، ولصق حضرته، فأمر برفع الطعام مدة ثلاثة أيام، عتباً على العرب، بسبب جرأتهم على سوء الأدب. ثم إن العرب تطارحوا [295] على العفو من الأمر الكريم، من قبيح ما جناه أتباعهم وعبيدهم وأشياعهم، واعتذروا من فعل من لا خلاق له، فقبل سيدنا ومولانا الإمام توبتهم، وصفح جرأتهم، وأمر رضي الله عنه بصرف اطعامهم والتمادي على إكرامهم حناناً منه بسبب قصودهم والمامهم، وتمادى ذلك الى اليوم الخامس من جمادى الأولى من سنة ست وستين وخمس مائة المؤرخة. ثم أمر سيدنا بكتب أسماء كل من سلب له شيء، وما سلب لكل رجل من الثياب والأسباب[2]، وبكتب أسماء العبيد الذين ماتوا، وأسماء الأحرار الذين ذهبت أرواحهم بالتعدي وفاتوا، وأمر بجبر كل ما مضى للناس من ثيابهم، وقيمة عبيدهم ودوابهم، وودي الأحرار بدياتهم إلى قبائلهم، وهذه غاية العدل والكرم، الذي لم يتقدم لغيره في الزمان بالقِدم، رضي الله عنه وجعل الجنة مأواه

(1) يلوح من بعض النصوص شبه «بوريك» على أعراب أفريقية. راجع صفحة 297 - 304 - 507 - من المن بالإمامة

(2) كذا في أصل المخطوط ولعل الأصل الأسلاب

ذكر تمييز(1)العرب الوافدين ومن وصل معهم

ولما كان يوم الأحد الثامن من جمادى الأولى أمر سيدنا بتمييز العرب المذكورين، وأن يحضروا بين يديه في رحبة قصره العتيق بدار الحجر(2) داخل حضرة مراكش، وأن يكون دخولهم إليه بحيث يراهم ويطلع هيئاتهم، ليكون احزم له في النظر لعساكره [296] واصلاح حالتهم لمطالعته ذلك، فابتدأوا بالدخول عليه في يوم الأحد المؤرخ على ترتيب توحيدهم أولاً في قبائلهم السابقة لهذا الأمر العزيز وعشائرهم، فكان الذي ابتدأ أول يوم قبيلة رغبة لتقدمهم في التوحيد، وأمروا أن يدخلوا في كل يوم بعددٍ معلوم من القبيل المأمور له، فتمادى تمييزهم على هذا الترتيب الغريب مدة خمسة عشر يوماً يدخلون غدوة حتى صلاة الظهر، ثم يرجعون بطائفةٍ أخرى من بعد صلاة الظهر إلى آخر النهار، على ترتيب القبائل المذكورة والعشائر. وسيدنا الإمام الخليفة أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه جالسٌ في مجلسه الكريم مع أشياخ الموحدين أعزهم الله، وأشياخ طلبة الحضر، وأشياخ العرب: يحرض العرب والناس على الجهاد، ويأمرهم بالجد والاجتهاد، ويعلمهم من أدبه الديني الكريم بحيث يروه هيبة وتعظيماً، وتوقيراً وتكريماً. ولما كان يوم الأحد الثاني والعشرين من جمادى الأولى المؤرخ المذكور أحضر سيدنا أشياخهم وكبراهم وطلبتهم أبا محمد عبد الواحد أقوسحور(3) الهنتاني، وأبا زكريا يحيى بن(4). . . المعروف باقصور،

(1) تمييز الجيش قبيلةً وهيئة عادة عرفت من أيام المهدي سنة 515 وكان يقصد به علاوة على ما فيه من تنظيم ضروري لسير الأمور، الحرص على انسجام الكتائب وتنسيقها، وقد كان للتمييز ـ لما له من أهمية ـ ديوان خاص

البيدق 29 — 32 — 33 — 35، راجع التعليق رقم 1 ص 199 إقرأ صفحة 297

(2) راجع التعليق رقم 1 صفحة 169 ـ المنوني ص 331

(3) أقوسحور هذا هو نفسه الذي رسمه الناسخ في صفحة 331 أقوسقر

(4) لعل المؤلف هنا كان يحاول أن يذكر والد يحيى هذا وقد سلف له صفحة 331 أن نعت يحيى هذا بالهنتاني

والنعمن بن(1). . . وأحضروا زمام تمييزهم في الطريق قبل وصولهم إلى حضرة مراكش حرسها الله فوجد بين تمييزهم الأول، وهذا التمييز [297] المشرف لهم زيادة كثيرة في العدد على ما سمح لهم؛ رفقاً بهم، فلقد رأيتهم في أيام التمييز المذكور ينزل الخارج من الدار المعظمة من تمييزه عن فرسه ويركبه آخر من الرحالة لهم ويدخل عليه ويغير بعض ثيابه وآلته، وكان العربي إذا دخل يأخذ عمامة صاحبه فيبدأ بتعميمها وهي في رأس الخارج، فلا يزال يعتمها في رأسه وهي تنحل من رأس صاحبه حتى تتم بأعجل الاستعجال بمرأىً يضحك الحاضرين، وكذلك في إعارة الثياب وآلات الركوب يجرد بعضهم بعضاً على مرأىً من الناس، لا يهابون أحداً ولا آمراً. وفضْلُ سيدنا الخليفة رضي الله عنه يغضي لهم على هذا كله لمعرفته بحاجتهم وضرورتهم ولبدارهم إلى طاعته وانقيادهم لخلافته ولما في نفسه من إرادة الجهاد بهم لأعداء الله تعالى فيتألف قلوبهم بذلك!

حدثني الكاتب أبو عبد الله بن محسن(2) كاتب ديوان التمييز لجميع العساكر المنصد ـ بتحميله ـ البركات للموحدين ولساير الناس من الأجناد المرتزقين قال: «دخلت على سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه وفي يدي تلخيص زمام تمييز العساكر». فقلت له: يا سيدنا ومولانا وقفت على هذا التمييز ووجدت فيه زيادةً كثيرة على ما تقدم. فقال لي رضي الله عنه: نعد لهم البركة على ذلك، إنما غرضنا الاحسان لأجنادنا وأن تظهر عليهم [298] الخيرات والبركات فامتثلت ذلك فجعل الله تبارك وتعالى البركة في جباياته، في جميع طاعته وجهاته، بسمحه في ذلك واحسانه وجزيل هباته، واتصال صدقاته.

(1) نفس البياض الذي سلف صفحة 331 لكنه هناك ترك أيضاً بياضاً قبل النعمان

(2) نعت ابن صاحب الصلاة وظيفة ابن محسن هذا بكاتب ديوان التمييز وسنرى صفحة 311 نعته بكاتب العسكرية، فهل التمييز يعني العسكرية؟ نحن نرى فعلاً أن التمييز يُلجأ إليه عند العمليات الحربية

ذكر تمييز الموحدين أعزهم الله لهذه الغزوة العظمى

ولما كان غرة جمادى الأخيرة من السنة المؤرخة أمر سيدنا الخليفة بتمييز للموحدين على عدد قبائلهم، ومنتهى منازلهم، وترتيب صفاتهم، فامتثل ذلك وتمادى تمييزهم مدة خمسة عشر يوماً، وقسم عليهم الخيل المسومة الجياد الروقة على أعدادها المذكورة، وكذلك على العرب الوافدين وأعطى للجميع الرّماح والدروع، والبيض والسيوف، وأنعم على الجميع بما استعد به لهذه الغزوة الحافلة، من الآلات المذكورة الكاملة، على أتم النظر المبارك حتى كمل على أتم العزم والحزم، ثم أمر لهم بإعطاء البركة، عن المراد لهذه الغزاة الملكة.

الإنعام بالبركة وإخراجها إلى العرب الوافدين وجميع عسكرية الموحدين أعزهم الله وأنجدهم.

وجلس أمير المؤمنين [299] في مجلسه العالي وأشياخ الموحدين معه وأشياخ طلبة الحضر وأشياخ العرب وأمر لوزيره أبي العلى ادريس المذكور أن يأمر الخزانين بإحضار الأموال بين يديه من الدنانير والدراهم فأحضرت أمامه وعلت أكداماً. وحسُبها من الذهب والفضة أحناساً، وقدّم الموحدين في تنفيذ البركة لهم، فخرج للفارس الكامل منهم عشرة دنانير، ولغير الكامل ثمانية دنانير، وللراجل الكامل خمسة دنانير، ولغير الكامل ثلاثة دنانير. وأمر للعرب ببركتهم فخرج للفارس الكامل منهم خمسة وعشرون ديناراً، ولغير الكامل خمسة عشر ديناراً، والراجل سبعة دنانير وخرج لأشياخ العرب لكل شيخ منهم خمسون ديناراً، ولكل رئيس منهم على قبيلة مائتا دينار، وكسا جميعهم بالقباطي[1] والقمص والغفائر والعمائم، وأعطاهم السيوف المحلاّة، والدروع السابغات، والبيض والقنا، من الرماح الطوال، وأمرَ لهم بثلاثة آلاف فرس قسّموها على قبائلهم وأتباعهم ورجالهم، وظهر على العرب والموحدين وعلى

(1) جمع قبطية، أنظر التعليق رقم 4 صفحة 215

جميع العساكر السرور وتمكن لهم الاستبشار والنشاط، وتضاعف لديهم الاغتباط والارتباط، وأمر للموحدين أعزهم الله بحظهم من الخيل المسومة المجلوبة المذكورة فقسّموها على قبائلهم ورجالهم، وهذا كله من [300] سيدنا نظرٌ إلى جزيرة الأندلس في هذه الغزوة الحافلة خلّد الله أمره، وأعزّ نصره.

خبر حركة سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه من حضرته مراكش في سنة ست وستين وخمس مائة التي كانت أول غزواته الى جزيرة الأندلس لاحياء رسمها، وضبط اسمها، ودفع النصارى الكافرين عن جهاتها والمنافقين المحاربين من جنباتها.

قال المؤلف عبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة: قد ذكرت فيما تقدم احتفال أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين لهذه الغزوة العظيمة الحافلة واستدعاءه العرب من أرض إفريقية والزاب، وجمعه للموحدين والناس من أرض العدوة واستنهاضه فيها صنوف الأجناد والمطوعة، وإعداده لها ضروب الآلات والعدة، واستظهاره عليها بأبلغ العتاد والقوة، واستعماله لها غرائب الجُنن والأسلحة، أخذاً بالحزم واستطالةً على المنافقين من آل مردنيش، والنصارى الكافرين فلنذكر الآن حركته السعيدة.

كانت من الحضرة مراكش [301] صبيحة يوم السبت الرابع من شهر رجب الفرد، بموافقة اليوم الثالث عشر[1] من شهر مارس العجمي، من سنة ست وستين وخمس مائة، وخرج على باب دكالة[2] من المدينة المذكورة وقد

(1) الموافقة مضبوطة هنا

(2) باب دكالة من أقدم أبواب مراكش

ALLAIN et DEVERDUN. Les portes Anciennes de Marrakech

Hesperis. Tome. WLIV 1957 page 105'